مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/65

ر ت م د: 1112-685x
ر ت م د إ: 2588-2236

المجلد: 13 / العدد: 01 / جوان 2020
ص ص: 159 ـ 173

محنة المثقف العربي: قراءة في السيرة الذاتية عند هشام شرابي

The distress of serveral Arab intellectual: Reading of the CV at Hisham Sharabi

سلطان ثابت*
جامعة عبد الحميد مهري
قسنطينة 02/ الجزائر
Thabet.soltane@univ-constantine2.dz

عصام عبد الحفيظ
جامعة عبد الحميد مهري
قسنطينة 02/ الجزائر
Assam_abdelhafid@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2020/03/09 تاريخ القبول: 2020/06/28 تاريخ النشر: 2020/06/30

الملخص:

لا شك أن السيرة الذاتية نوع فردي ينفتح على أكثر من أفق، ويحتمل أكثر من قراءة، من هنا تظهر أهمية الدعوة إلى ضرورة دراسة السير الذاتية للمفكرين العرب على وفق المقولات التي ترى في السيرة نصا فلسفيا وفكريا قابلا للتحليل والتعليل والتأويل، وسنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على مجمل العوائق والمعضلات التي تصطدم بالمثقف العربي وتؤثر على نتاجاته الفكرية والحياتية من منطلق المثقف والمفكر والناقد العربي الفلسطيني هشام شرابي من خلال سبر لغور سيرته الذاتية.

الكلمات المفتاحية: هشام شرابي؛ السيرة الذاتية؛ المثقف العربي؛ الاغتراب؛ التنوير.

Abstract

There is no doubt that the curriculum vitae (CV) are an individual type that opens to more than one horizon and potentially more than understanding. Hense the importance of the call to the necessity of studying the CV of Arab thinkers, according to the opinions that see in the CV a philosophical and intellectual text capable of analysis, explanation and interpretation.In this research, we will try to shed light on the overall obstacles and dilemmas faced by the Arab intellectual and that effect his intellectual and life productions by studying the CV of the Palastinian Arab intellectual and critic "Hisham Shrabi".

Keywords: Hisham Shrabi, curriculum vitae (CV), Arab thinkers, philosophical, obstacles.

* المؤلف المرسل.

مقدمـــة:

من المعروف أن الفئة المثقفة في عالمنا العربي تواجه تناقضات جمة وتخوض في متاهات عديدة في محاولة الأخذ بأسباب وعوامل الكتابة النخبوية والإنتاج الفكري العربي في شتى المجالات، إلّا أن التطرق لعمق وهواجس هذه الكتابات لا لم يُسلّط عليها الضوء بالكيفية اللازمة إلا من خلال بعض الدراسات البسيكولوجية والسوسيو-ثقافية لدى المحيط الاجتماعي والسياسي لهذا المثقف العربي أو ذاك. ففي سياق ذي صلة وبمنهجية مغايرة أقرب منها الى العمل الروائي الأدبي البعيد عن الروتين الإحصائي التحليلي نجد المفكر والناقد الفلسطيني المغترب هشام شرابي (1927-2005) من خلال مؤلفاته الخاصة بسيرته الذاتية وبالأخص "الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي" و "صور الماضي" نجده يتناول أهم العوامل والمعطيات المؤثرة على المثقف العربي وبالتالي كتاباته وإنتاجاته، سواء على المستوى الشخصي من تجارب وعواطف، أو على مستوى المحيط الخارجي لديه. وهنا نتساءل عن هذه التجارب والعوامل من المنظور الشخصي لدى شرابي، وكيف أثّرت ولا تزال تؤثر على مسارات وتوجهات المثقفين العرب؟ وقبل هذا وذاك قراءة على مضض لهذه السيرة الذاتية "الشرابية" بين الثقافة والسياسة؟ ومن ثمّ كيف كانت لهواجس الوطن والاغتراب وقصور التنوير دور في عجز المثقف العربي واغترابه عن واقعه المزمن؟

1/ السيرة الذاتية والمثقف:

.تعد السيرة الذاتية اليوم وجها من وجوه السرد المقصود، تتراءى فيه تجارب الإنسان سواء أباح من خلالها تفاصيل حياته الدقيقة أم تكتم عنها، فهي في المحصلة النهائية مواجهة الذات للذات في لحظة اكتشاف الإنسان أن ذاته الساردة تأخذ ذاته الواعية إلى ضرورة البوح وغائية استرجاع الذكريات والصور الماضية، وفي هذا السياق يرى "جورج ماي" "أن كل سيرة تحتوي على عرض "قصدي " يقف وراء كتابتها، مع أن السير تكشف دائما عن قصور ذلك القصد وما يخفي من بواعث، وأن وراء ذلك القصور قوى كثيرا ما يكون مؤلف السيرة غير قادر على إدراكها وكشفها، أو هو يحاول طمسها عن عمد لغاية يعرفها" (ماي، 1995، صفحة 87). وقد وجد "جورج ماي" أن مقاصد أو غايات السيرة وما تخفي من بواعث تنقسم إلى قسمين:

الأول: المقاصد العقلانية المنطقية الرصينة التي تتضمن بدورها التبرير والشهادة، فالتبرير ملخصه حاجة المؤلف إلى الكتابة السيرية ليسوغ على رؤوس الملأ ما كان قد أتاه من أفعال، أو صدع منه من آراء، وأما الشهادة فتعني أن المؤلف يكتب سيرته كي لا يزول أثره في الحياة بعد موته بعد أن ترك وراءه شهادة حية يمكن الرجوع إليها؛

الثاني: الدوافع التي هي أقـــرب إلى الانفعـــالات والعـــواطف واللاعقلانيـــة، وهي بدورها تنقسم على قسمين: يتصـــل الأول بشعـــور الكاتـــب الذي قوامـــه التلـــذذ بالتذكار، أو الجزع من المستقبل، والآخر يتصل بالحاجة إلى العثور على معنى الحياة والتجـــارب المنقضية أو استعادتها.

إن قراءة أي سيرة لابد من أن تقف عند الغايات والمقاصد كونها تكشف عن النوازع النفسية والفكرية التي عادة ما تختبئ وراء النصوص والكلمات،" أي خلف معطف اللغة ومظاهر القيم الجمالية التي تقع وراء قشرة النص نفسه، وقد علاها بريق العبارات ووميض السياقات اللائذة تحت سلطة الحقيقة ا والمجاز والاتساعات التي تزيح المعنى لتصنع أنماطا من الايهامات الدلالية والتيه المعنوي التي تفضله الذاكرة المتلقية" (التميمي، 2007، صفحة 33). والواقع أن في قراءة السيرة الذاتية لدى هشام شرابي نلتمس من أن سيرته شهادة تتعلق بمرحلة مهمة من تاريخ المجتمع العربي المضطهد فكريا وسياسيا، آخذا بالنموذج الفلسطيني واللبناني المصغر ليعبر عن هذا الواقع العربي المعمم، ولهذا كان حريصا على أن يجعل أسلوبه في كتابتها مصوغا بلغة الحقائق والمراجعات التي تتقصى الحفر والتحقيق في الذاكرة بغية تمثيل الماضي واسترجاعه حاضرا.

2/ قراءة عامة في السيرة الذاتية عند شرابي:

رحل المفكر الفلسطيني هشام شرابي في بيروت بعد رحلة مضنية أمضاها في المنافي بعيدا عن مدينة يافا التي أحبها كثيرا والتي غادرها في سنة 1947 ولم يتمكن من العودة إليها إلا مرة واحدة في سنة 1993. حيث غادر الحياة بعد صراع مرير ضد سرطان البروستاتا، وبعد مسار طويل وحافل مع الأفكار والتجليات والنظريات الفكرية الحية، فكان واحدا من أبرز المثقفين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين ، فهو مفكر ذو شخصية متميزة وفريدة من نوعها، فقد جمع في فكره أفكار الحداثة والتطور الفكري وحوار وصراع الحضارات وهواجس الحرية والعقلانية العربية، وسبل تحرير المجتمعات العربية من تبعات التخلف

الحضاري والاستبداد والقمع السلطوي ، وكان لشرابي حضور فكري وقومي لافت في العالم العربي على الرغم من استقراره وإقامته شبه الدائمة ابتداءً من 1947 وهو التاريخ الذي كان منطلقا لبداية تبلور فكره النقدي، فكانت أغلب كتاباته ونشاطاته وانتاجاته الفكرية تأتي في سياق النقد والنهضوية، نذكر منها "النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي1988، "النقد الحضاري للمجتمع العربي في القرن العشرين1995"، "مقدمات لدراسة المجتمع الغعربي1975"، ومنها بالطبع سيرتيه الذاتيتين "الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي" و"صور الماضي" اللتان كانتا بمثابة ترجمة وسرد لهموم وتطلعات وأحلام المثقف العربي دون تخصيص، فنجده يسرد فيهما بطابع شبه روائي وفلسفي فريد من نوعه كل هاجس وصورة وحلم وتطلع وانكسار ونهوض وآفاق و مضائق ومعيقات كل ما يرتبط بالمثقف العربي أولا باعتباره إنسان فاعل ومتأثر بمحيطه، وثانيا باعتباره كينونة متميزة في المجتمع ويجب التعايش مع هذا المعطى دون نرجسية أو تحقير للذات وهذا بأخذ دوره ومسؤوليته التاريخية والمجتمعية كاملة.

1.2/ سيـــرة مثقف وكاتب:

تتضح سـيرة المثقف والكاتـب لـدى شـــرابي في ولعــه بالقــراءة والكتابـــة، وهو ولع نشأ معه منذ فترة زمنية مبكرة في حياته "منذ طفولتي أحب القراءة(...) ولعت بالقصص في روض الأطفال عند مس بايـن في يافا" (شرابي، 1998، صفحة 24)، حيث توسع خياله وهو طفل بقراءته لقصص الأطفـال التي تحفزه على التفكير والتخيل ... ومثل هذه القراءة تدفع على الدوام نحو البحث والتنويـع، مما يجعل القارئ شخصا باحثا لذاته عن مثال في ذات أخرى أو ذوات أخرى خاصة إن كانت هذه الذوات أسمـــاء وعلامات فارقة على مستوى الإبـــداع الأدبي والفكري، "وهذا النمط من القراءة لا يتوقف عند حدود معينة، بل يمتد ليشمل تنويعـــا على قراءات متباينـــة، "في السنـوات الأولى من دراستي الجامعية كان ميخائيل نعيمة بمنزلة معلمي الروحي (...) كانت تلك القراءات بالنسبة لي نقلة فكرية عميقة لا على مستوى القراءة فحسب، بل على مستوى النظر والتفهم في الكتابة" (شرابي، 1987، صفحة 120).

إن ما يتولد عن القراءة وبالتالي تنويعها هي بداية الكتابة والتفكير تفكيرا موضوعيا،" ذلك أن من أساسيات الكتابة لدى شرابي –وقد تكون الحالة عامة-الاختلاء والعزلة الذاتية

مع احترام نظام زمني يهب عمق التفكير، علما أن الكتابة عنده تتولد من بطء ولادتها دون سرعة، "استغرق انجاز كتابي "المثقفون العرب والغرب" ست سنوات، وهو لا يتعدى المائة والخمسون صفحة، لقد أمضيت من عمري سنين عديدة في انفراد تام بسبب هذا العمل..." (شرابي، 1998، صفحة 83)، فالكتابة لديه قد تكون سردا أو فكرا على أن للكتابة الفكرية خصوصياتها، ولعل من أهم هذه الخصوصيات النقد الذاتي، فالخوض في النقد الذاتي لدى شرابي هو في الأصل خوض في فهم الإنسان العربي وحياته، وهو كذلك خوض وتطرق لمظاهر التخلف وسبل التقدم، فلا سبيل للتقدم دون معرفة الذات العربية لذاتها معرفة دقيقة، تتمكن خلالها من استقصاء جوانب الضعف الراجعة إلى التخلف والانحطاط قصد تجاوزها، لذلك رشحت محاولته في نقد الذات العربية بمختلف جوانبها مكامن القصور التي أدت إلى التخلف والتقهقر والانهزام على مختلف الأصعدة. إن النقد الذاتي يعني مراجعة النفس من خلال آراءها وأفكارها وأعمالها وممارساتها لتصحيح أخطائنا ونقاط ضعفها، وهو ما يحلينا إلى أنه معرفة لمواطن القوة والضعف وتقييم الذات وتقويمها ومواجهة السلبيات وإعادة بنائها على أسس عقلانية،" فبعد كل محاضرة ألقيها أو نقاش أشترك فيه، ما زلت أنتقد نفسي وأحاول في مخيلتي تصحيح ما ارتكبته من هفوات في الأسلوب والمضمون" (شرابي، 1998، صفحة 35).

2.2/ سيـــرة سيـاسي:

تتضح سيرة شرابي كإنسان سياسي في "صور الماضي"، فتتمظهر من خلال التكوين الفكري لديه كما تعكسها العلاقة الجامعة بينه وبين " أنطون سعادة"، فالتكوين الفكري يؤهل لرسم صورة عن الوضع العربي في راهنيته تأسيسا على الصلة الوثيقة بين المثقف والسلطة وهي صلة تناولها البحث والتمحيص أكثر من بحث ودراسة لعامل أهميتها القصوى، إذا ما أخذنا بالاعتبار _وهو ما جاء به شرابي في سيرته – "كون المثقف بمثابة الباحث عن الحقيقة، وهو بحث غير مرغوب فيه مادامت السلطة تنشد ولاء المثقف لا حقيقته التي يبحث عنها، وهو ما يجعل المجتمعات العربية عرضة لأنماط من الاختلالات المختلفة" (الدين، أفريل1998، صفحة 226). إن علاقة هشام شرابي بالوطن العربي من خلال سيرته لم تكن علاقة فكرية فقط، بل كانت علاقة سياسية اجتماعية، والأكثر أنها علاقة نضالية جسدتها تحركاته ونضالاته وكتاباته ونشاطاته ومنتدياته، وهذا ما نزال نلمس ملامحه من خلال تحليله

لجذور وأسباب ونتائج هزيمة 1967، باعتبار أن هذه النكسة أو الهزيمة كانت عاملا مهما في ظهور حركة سياسية نقدية عربية جديدة تتحدث عن النتائج كأسباب محضة، فقد كان – حسبه- للواقع السياسي العربي أثره في طمس الهزيمة وتزييفها وإظهارها على أنها مجرد حدث استثنائي لا علاقة له بالمشهد السياسي المجسّد من قبل الأنظمة الحاكمة، فعمل على ضرورة أن ينظر إليها كنتيجة متوقعة وشكل من أشكال الفشل السياسي السائد في الأقطار العربية، ولهذا فقد وجه نقده السياسي نحو جميع البناءات والفاعليات المكونة والمكرسة للفكر السياسي والمشهد السياسي العربي إما على مستوى العمق أو السطح الظاهر. وتبعا لهذا التوجه أراد من خلال هذا أن ينبّه النخبة السياسية العربية أن تفهم وأن تقرّ بأنه ليس وعيها السياسي التقليدي هو المهزوم فحسب، بل كل ما يترجم هذا الوعي على شكل أحزاب وأنماط حكم وزعماء سياسيين وغيرها مهزوم ومنتكس أيضا، ولهذا علينا كمفكرين عرب (نقديين سياسيين حداثيين بالأخص) السعي لبناء فكر سياسي استشرافي مستقبلي، فالتردي في أوضاع حقوق الإنسان والاستبداد السياسي وعدم المساواة بين المواطنين مردّه –حسبه- تهميش قيمة الحرية والتنوير الفكري في شقه المتعلق بالبناء السياسي أو الجوانب السياسية التي تعرف قصورا وتخلفا واضحا.

3/ قراءة في شخصية المثقف العربي في ظل السيرة الشخصية الشرابية:

حين نقرأ لمذكرات هشام شرابي نلمس نقدا واضحا لذاته وتحليله لنفسه ووصفه لشخصيته، ونلاحظ من خلال ذلك أنه في الواقع ينقد ويحلل ويصف نفسية المثقف العربي المعاصر وشخصيته، وسنتوقف في ما يلي حول بعض النقاط الواردة في تحليل شرابي لنفسه واستعراضه لشخصيته:

1.3/ عدم الثقة بالنفس:

ليس من المستغرب أن تكون لشخصية الأساتذة ولأسلوب تربيتهم وتثقيفه تأثير مباشر على الطالب العربي، "ولن نكون مخطئين إذا قلنا إن أحد الأهداف والأساليب الأساسية للجامعة وللمؤسسات التربوية هو أن يتأثر الطالب بأستاذه، بحيث يكتسب الأول من الثاني الحد الأقصى من الأفكار والعادات" (مروة، 2000، صفحة 218).

يصف ويحلل شرابي العوامل والمؤثرات التي أحاطت به وأثّرت في تطوير نمط تفكيره بقوله" لا شك أنه لشخصية أساتذتي وأسلوبهم أثر كبير في تطور نمط تفكيري وفي العادات

الذهنية التي اكتسبتها في ذلك الحين والتي لازمتني زمنا طويلا. كان الأستاذ إذا تهكم على فكرة أو استصغر مفكرا قضى على الفكرة وعلى الكاتب بنظر الطلبة. كان التهكم هو السلاح الفكري الأشد فتكا في يد أساتذتنا وكانوا لا يتورعون عن استعماله في جميع المناسبات (...) لكني لا أحقد على أي أحد منهم، فقد وجدت نفسي أمارس الأسلوب نفسه بعد أن أصبحت أستاذا وأعرف الآن أن الدافع وراء هذه الممارسة إنما هو دافع لا شعوري مصدره الرئيس الخوف وعدم الثقة بالنفس" (شرابي، 1987، الصفحات 34-35). ولذلك يمكن القول أن شرابي مارس بصورة لا إرادية منه وتلقائية المنهاج الذي رسمته والمؤسسات التعليمية التي انخرط فيها خلال مسيرته التلقينية خاصة في الجامعة من دون نقد وبلا معارضة وبلا أدنى تمرد.

2.3/ الجهـــل والغـــرور:

يصف شرابي نفسه وأقرانه من الطلبة الجامعيين العرب بقوله " في تلك الأيام كان كل منا يعتقد أنه "فلتة"* يمتاز عن بقية الناس بذكائه وفطنته، كنا على أحر من الجمر لأن ننهي دراستنا ونبدأ حياة غنية حافلة بالمغامرات والأعمال الكبيرة. ولم أكتشف خطئي وأدرك بأنني لست فلتة إلا بعد أعوام طويلة من الجهل والغرور" (شرابي، 1987، صفحة 36)،" كنا نشكّل نحن الطلبة الفلسفة – بنظرنا على الأقل-النخبة المتميزة في الجامعة، فقد كنا نحن العاملين في حقل الفكر والفلسفة بينما انغمس زملاؤنا في انهماكات مادية تافهة مثل الاقتصاد والهندسة والكيمياء ! وكنا نتصنع الجديّة عن غير قصد، فنرفع أصواتنا في نقاشاتنا الفلسفية في "الميلك بار" ونسرّ عندما يجتمع الطلبة حول طاولتنا ليستمعوا إلى نقاشاتنا ويحاولون مشاركتنا فنتجاهلهم باحتقار" (شرابي، 1987، صفحة 41). وإجمالا يعتبر هذا الوصف والتعليق علامة واضحة على خطورة "نمط الاعتقاد على المثقف"، فالاعتقاد – بصدق وصواب أمر ما أو شيء ما- مؤشر ودليل على حالة الإنسان الذي يعتقد ويمارس عملية الاعتقاد، فاعتقاد شرابي أنه "فلتة" هو تعبير عن إرادته بأن يكون فلتة، والإرادة والعقيدة لا تتعارضان، بل تسيران معا كتابع ومتبوع، كما نجد هذا ينطبق على شرابي من جانب عقيدته بالقومية الاجتماعية السورية التي لم تقف في وجه إرادته. إرادته كانت بأن يعمل أستاذا في جامعة "جورج تاون" بشيكاغو الأمريكية وينفّذ مخططاتها وينشر أفكارها، وهذا ما حدث بحيث انتصرت إرادته على مقتضيات عقيدته. وقد يحصل في كثير من الحالات أن يستغل الفرد عقيدته ليحقق ما تريده إرادته، ولا شك بأن عملية التراجع عن الاعتقاد الخاطئ وبعد سنوات طويلة من الأنانية والمكابرة هي فضيلة كبرى" (مروة، 2000، صفحة 221). ولكن

الحكم على الاختصاصات العلمية كالاقتصاد والهندسة والكيمياء بأنها "إنهماكات مادية تافهة" يدل على مدى استهزاء الطالب الجامعي العربي - على الأقل في فترة شرابي الدراسية بالعلوم الطبيعية والتطبيقية وابتعاده عنها. وهذه ربما هي نقطة الضعف عند معظم الذين وصلوا بعدها من الشباب العربي المثقف المختص بالعلوم الاجتماعية والفلسفية النظرية إلى مراكز حكومية حساسة، فأصبحوا يحتقرون العلم التطبيقي ويتجاهلون العلماء والمخترعين ويتصنعون الجديّة ويسرّون عندما يتجمع العامة حول مؤتمراتهم وتجمعاتهم واجتماعاتهم والإصغاء لهم. "ومن أجل ذلك تعاني مؤسسات الحكومات العربية ومصالحها وإرادتها التي يجلس على رأسها أمثال هؤلاء المثقفين، الكثير من الفوضى والتعاسة والبلبلة. ولكن يستدرك شرابي في وصف نفسه والظروف التي أحاطت به فيعترف أنه ليس عبقريا فيقول "الآن بعد أن أضعت سنوات ثمينة من حياتي وبت أدرك – ودون حسرة- أنني لست عبقريا ولا فلتة، بل إنسان كسائر البشر، لا أختلف عن زملائي ذكاءً أو فطنة. وإني لقانع أن نكون هكذا، قادرا فقط على تسيير حياتي بنفسي والتغلب على القسر والتشويه اللذين تعرّضت إليهما في صغري. وإذا كنت لا ألوم أحدا لفقدان العبقرية التي اعتقدت أنني امتلكتها يوما فإنني لا أتمالك أحيانا عن التساؤل: لو أن أساتذتي ومن أسهم في تثقيفي كانوا أقلّ سطوة في معاملتهم لي وأقل خوفا على مراكزهم ومصادر عيشهم ومكانتهم الاجتماعية فهل كانت حياتي وشخصيتي تكونان على ما هو عليه الآن؟ قد أغفر للذين أدين لهم "بثقافتي" جهلهم وغباءهم، ولكنّي لن أغفر لهم غطرستهم والقساوة المعنوية التي مارسوها في تثقيفي" (شرابي، 1987، صفحة 35).

وقد نتساءل في سياق ذي صلة عن سبب توقف مذكرات شرابي عند استشهاد "أنطون سعادة"* عام 1949 باعتبار أنه استمر في عمله الحزبي حتى 1959، والجواب قد يكون كامنا في وصف شرابي لنفسه هذا الوصف العفوي الساذج البعيد عن المجاملة والدبلوماسية تجاه نفسه. "هذا الوصف يرمز إلى آلام نفسية عنيفة كانت تعتصر في زوايا وخبايا عقله الواعي واللاواعي وفي وجدانه الشعوري واللاشعوري، كما يرمز إلى وجه خفي من وجوه "عقدة الذنب" التي يعاني منها شرابي" (مروة، 2000، صفحة 223).

3.3/ الاتكالية الفكرية:

يعتبر شرابي في مذكراته أن الإتكالية مرض من أمراض التفكير العربي، ويعاني منها الإنسان العربي بصورة عامة في هذا العصر. إنها عملية هروب من النفس –بتعبيره- ويعبر الإنسان العربي عن هذا الهرب من نفسه بسعيه الدائم للخضوع إلى إنسان آخر يحكمه ويرهبه دون أن يتسامح معه أو يحترم عقله أو كرامته، "إن الإتكالي يهاب الحقيقة ولا يبحث عنها إذا بعدت عنه ولا يرحب بها واجهته، وأشنع أعدائه هم الذين يبحثون عن الحقيقة أو يحترمونها أو يحاولون أن يدلّوه عليها، والعرب على العموم يرحبون دائما بمن يبرر لهم أنفسهم وجميع ما لديهم من سخافات، وينفرون من الذي ينتقدهم أو ينقد شيئا مما يفعلون أو يعتقدون أو يملكون ويعتبرونه الخصم اللدود" (مروة، 2000، صفحة 227). وعموما يؤيد بعض المفكرين العرب هذه الوجهة من النظر عند شرابي بقولهم إن الذهنية العربية تشكو من اضطراب منهجية التفكير وقصور الفكر الجدلي وطغيان الانفعالية الذاتية، حيث تبدو للإنسان العربي ظواهر الحياة والمجتمع أقوى من طاقته على الاستيعاب بسبب عقدة النقص التي يعانيها تجاه المتسلط الداخلي والخارجي بشكل خاص." لذلك فهو يبحث عن وسائل سحرية أو خرافية لسد النقص كما أشرنا سابقا، بحيث يغلب عنده المنطق الثنائي القائم على "إما / أو" أي مبدأ "يا هيك يا هيك"، وتنتفي عنده كل جدلية تستوعب قانون التناقض" (مروة، 2000، صفحة 227). والأسباب التي تقف وراء هذه العقلية المتخلفة هو ذلك النموذج من التسلط والقهر الذي يحكمها ويتحكم بها.

ومن ناحية أخرى نلاحظ في مراجعتنا لبعض دراسات "شرابي" أنه قد قدّم تحليلا للمشكلة النفسية التي يعانيها الإنسان العربي، فقد " كان الأثر النفسي للاستعمار الغربي بصورة خاصة على الجيل الناشئ الجديد عميقا، يتخطى كل حد، فقد عمد الاستعمار عند إشرافه على التربية إلى محاولة التأثير على التوجيه الثقافي والسياسي للجيل الجديد، وعلى صعيد أعم، فإن السيطرة الغربية آلت إلى قيام شعور بالنقص والكبت عبّر عن نفسه في العدمية واليأس، وأن الحكم الغربي مدعوما بتعاون الجيل القديم الضمني أو الفعلي قد أسهم في توسيع الهوّة بين الأجيال إلى خلق جيل من الشباب المهان الثائر" (شرابي، 1981، صفحة 27). وهذا ما يؤكد بأن العقد النفسية في بعدها اللاواعي تعتبر حليفة طبيعية للمشاكل الاجتماعية، وأن الاضطرابات النفسية التي يعانيها المجتمع هي عوامل مساعدة، بل هي الوجه الخفي للاضطرابات الاجتماعية.

4.3/ غياب حرية التعبير والحرية السياسية:

في المناخ الديمقراطي يكون موقف المثقف من السلطة موقفا ايجابيا وفي غير ذلك يكون القهر والابتعاد وبما أن كثيرا من الأنظمة العربية تغيب عنها الديمقراطية فالمتوقع أن يبتعد المثقف عن كافة المستويات وبكل الوسائل مما يؤدي إلى اغترابه داخل الوطن وتعطيل مواهبه وانشغاله بمواضيع هامشية لا تفيد المجتمع في شيء، ويصبح وضع المثقف بالنسبة إلى مواهبه كوضع مجتمعاتنا بالنسبة إلى مواردها: يهدرها ولا يستثمر منها إلا الجزء الصغير ،وانطلاقا من رؤية شرابي حول أنه "لن يكتب النجاح لأي مشروع حضاري عربي إلا أن نأخذ في الحسبان قضية إعادة الاعتبار للإنسان العربي وصون حقوقه وحرياته" (شرابي، 1981، صفحة 73). ولا شك أن الاستقرار السياسي دور بارز في إنعاش الإنتاج الثقافي، فالاستقرار من شأنه أن يخفف من كثرة نزيف الكفاءات العربية نحو الخارج فضلا عن كونه عاملا أساسيا في تقدم البحث العلمي من خلال جو الاطمئنان والأمن للمثقفين عموما، فغالبية الأنظمة العربية إما أنظمة ملكية وراثية أو أنظمة عسكرية وجميعهم تقريبا ينادون بالقومية العربية لكنهم على مستوى الممارسات يفعلون النقيض وأصبحت كلماتهم عن القومية والإسلام والديمقراطية وغيرها مجرد شعارات جوفاء، وكان لكل هذا الأثر الشديد والكبير في شعور المثقفين بأنه لا فائدة حيث القهر والاستبداد والنظرة الدونية لهم ومن ثم أصابهم الاغتراب.

إن حرية التعبير والممارسة من شأنهما أن يعمقا الوعي و الولاء لدى النخبة المثقفة وبالتالي لدى المجتمع، فالإنتاج العلمي لا يثمر إلا في جو الحرية والملاحظ أن معظم السلطات الحاكمة في العالم العربي تحاول احتواء معظم المفكرين من خلال هيمنتها على مصادر الثقافة بما فيها الصحافة والجامعات ومراكز البحث وأجهزة الإعلام من إذاعة وتلفزيون، وبالتالي تمنع نشر الأفكار التي تتعارض مع موقعها، الأمر الذي يجعلها في نهاية الأمر غير مبالية أو صامتة، فلو أن المثقف العربي استطاع خلال العقود الماضية أن يشارك إلى حد معقول في صنع القرارات السياسية التي أثرت على مصير حياتهم وحياة مجتمعاتهم لتغيّر الكثير من معالم الصورة التي نعيشها الآن بتعبير شرابي.

4/ جدلية الوطن/ الغربة لدى المثقف العربي:

لقد كانت الغربة حالة قهرية أصر شرابي على التخلص منها، ولئن كان الغرب جزءا لا يتجزأ من تكوين العقل العربي المعاصر، فإن الاغتراب يبقى نكبة لا تطاق، ولهذا نجد كتابه الجمر والرماد كله حنين إلى الوطن وتلهف بحر الجمر للعودة إليه ولو بعد حين، وهو كذلك قصة جهود مضنية طوال سنوات طويلة للعودة الى هذا الوطن وتخطي انحطاطه ونكباته، كما تضمن سلسلة منم النكبات المحزنة الشخصية، "يغمرني إحساس في هذه اللحظة أن الفرصة قد فاتتني وأنني لن أعود أبدا إلى وطني، بل سأمضي ما تبقى لي من العمر هنا في هذه البلاد الغريبة، وأني سأموت بها" (شرابي، 1987، صفحة 09). وإذ هو ينشر هذه الذكريات – "ومع أنها لم تكن كما كان يريد لها نهاية مرحلة الغربة – فهي نوع من العودة. إنها رحلة تستعيد لحظات التوق والتوقّد وتحيي محطّات اللهب الثوري، حيث التثقف والتثقيف يجسّدان الفعل القومي الأسمى" (وآخرون، 1993، صفحة 10)، وكم كان بليغا وصف شعوره أثناء السفر الأول للولايات المتحدة الأمريكية " عندما غاب الشاطئ الفلسطيني عن ناظري (...) جعلت أخطّ الرسالة التي يخطّها كل مسافر عند الفراق – أحيانا على الورق، أحيانا في قلبه- " (شرابي، 1987، صفحة 14) .

والفراق يتكرر ويتعمق مع كل خيبة جديدة، فخلال دراسته في الولايات المتحدة تضيع فلسطين ويشرّد أهلها، ومع ذلك فإنه يتغلب على اليأس لأنه كان يعتقد أن العودة لا مناص منها وهي محتومة، فيسرع في الحصول على الماجستير والعودة إلى لبنان كي يسهم في النضال القومي، ولكن العدو الداخلي بتعبيره ينجح في سحق الحزب القومي وإعدام زعيمه "سعادة" وهكذا يُجبر شرابي من جديد على الهرب لأمريكا، ولئن كان في المرة الأولى قصدها بهدف التحصيل العلمي، في هذه المرة قصدها ناقما على وطن نبذه مرّتين ومتوعّدا: "لن أرجع إليك... لن أرجع أبدا" (شرابي، 1987، صفحة 238). الغربة إذن هي الجرح النازف، وجدلية الغربة والوطن تتشابك مع الروح الفكرية العاطفية للمثقف مهما كان توجهه وأسباب ابتعاده عن وطنه، كما أن جدلية "المثقف والسلطة" تندمج بها العلاقة بالغرب ثقافيا وسياسيا. الغرب هو القدوة الثقافية للخروج من التخلف، فثقافته أطلقته اجتماعيا بمبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحررته فكريا من تقاليد الفكر المتكلس وبحداثة تفتح الباب على مصراعيه للإبداع والتنوع والتعددية في شتى المجالات. وهذه جميعا ضالة المثقف العربي، لكن التناقض هو أن في الغرب يعظّم الحرية في أوطانه ويتناساها في البلدان التي استعمرها،

فهو السند الأكبر مثلا لإسرائيل وللرجعية العربية المتسلطة، وهذا التناقض يشكل أزمة فكرية ونفسية عند كل مثقف حداثي يجد الغرب حليفا للسلطة المستبدّة. والأزمة تتفاقم حينما ينبذك وطنك فتجبر على اللجوء إلى الغرب نفسه، وإلى بلد كان الفاعل الأهم في نكبتك القومية، فتضطرك الظروف القاهرة للإقامة فيه، بما في ذلك من تعميق للتمزق النفسي والفكري وشرخ في الهوية التي طالما تاقت للاندماج بالهويات الجماعية الشاملة، "ومن هنا تبدو الغربة انفصاما يشبه الموت (...) ومنذ ذلك الحين وحتى سنة 1967 تحوّلت حياتي إلى حياة صمت في المنفى" (شرابي، 1987، صفحة 167).

5/ الجنوح نحو الاغتراب:

إنّ هناك تراجعًا رهيبا للدور الحضاري للمثقف العربي في الفترة الراهنة مقارنة مع السابق، وذلك راجع حسب "شرابي" لعدة عوامل أهمها "أنّ المجتمع العربي أصبح عاجزا على أن يوفّر له المكانة اللائقة به، كما أنّ الأنظمة العربية تفرض على مثقفيها الرقابة الفكرية وهذا ما يدفع المثقف إما للعمل عنده أو للهجرة إلى الخارج، وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان، وهذا هو حال هشام شرابي ذاته" (سباع،، 2016، صفحة 91)، ولهذا فقد اتّسم وضع المثقف العربي في مطلع القرن العشرين بالانحسار "وذلك بأن انتقل المثقف العربي من وهم الإصلاح الديني للأمة العربية بعد سقوط الخلافة العثمانية إلى سراب الوحدة على إثر ثورة أحمد عرابي" (معزوز، 2012، صفحة 25) وبالتالي انتقال "الفكر في الوطن العربي من وهم إلى سراب" (شرابي، صفحة 73)، هذه السّمة التي ميّزت الفكر العربي هي نِتاج ظروف اجتماعية وسياسية وثقافية ميّزت المجتمعات العربية وأثّرت سلبا على المثقف العربي باعتباره مفعِّل هذا الفكر برمّته، وهذا ما خلق لديه نوعا من الحلول الفكرية المغلوطة وقِصر في الأداء الفكري والثقافي داخل هذه المجتمعات.

تناول "شرابي" في كتابه «المثقفون العرب والغرب» وضعية المثقف العربي وعلاقته بالغرب، وفي فترة يصفها بالقلِقة، مثقف تميّز حسبه بالانفصال على واقع مجتمعه، وانصرف عن قضاياه وبالتالي دخول المثقفين العرب في ما يعرف بـ"أزمة المثقف" والتي كانت نتيجة تساؤله الدائم عن جدوى ونفع الإنتاج العلمي للمثقف والمتخصص بالنسبة إلى الممارسة والتغيير، ويمكن القول أنّ إجابته لا تختلف عن فكرة "ألتوسير" التي مفادها أنّ ثمة ممارسة على مستوى النظرية، وبعبارة أخرى إذا كان "ماركس" قد أكّد أهمية الممارسة في تغيير

الواقع فإنّ الممارسة ممكنة حتى على مستوى النظرية أو على مستوى الفكر، ولا يحصل تغيير المجتمع عن طريق النّضال الطبقي والحزبي فحسب، وإنما يحصل عن طريق تغيير الأفكار الرجعية وطرح أفكار تقدّمية بديلة أيضا وهو يقول في هذا السياق: "إنّ للعمل الفكري، حتى ولو انحصر في الحقل النظري البحت وزنه وفعاليته في الصراع" (شرابي، صفحة 13).

6/ قصور التنوير كمآل حتمي للاغتراب الفكري!:

إن الجرأة على معرفة الذات شرط أساسي للتنوير, انه هو بداية التخلص من حالة القصور, و شرابي يعتبر أن المجتمع الذي يرمي إلى تغيير ذاته "لا يستطيع النجاح في هذه العملية دون أن ينفذ أولا إلى عملية معرفة ذات، و لا تكون هذه المعرفة نظرية بل معرفة نقدية قادرة على اختراق الفكر السائد, و النفاذ إلى قلب القاعدة الحضارية التي ينطلق منها سلوكنا الاجتماعي(...) و لا يمكن تغيير الواقع إلا بالكشف عن حقيقته, و ما عملية الكشف هذه إلا عملية المعرفة النقدية الهادفة إلى تغييره" (شرابي، 1981، صفحة 63)، فعملية النقد لديه هنا عملية تقع في صميم التنوير, من حيث كونها فاعلية تجعل من المعرفة تجليا للكشف و ليس للاستذكار يسهم في أن تتلمس الذات دروب التغيير التي ستسلكها بفضل عمل النقد, و هنا يذهب شرابي الى ما ذهب اليه "ميشال فوكو" حول أن "تجذر نوع من السؤال الفلسفي داخل التنوير، سؤال يشكل في آن واحد كلا من مسألة الارتباط بالحاضر، ومسألة نمط الوجود التاريخي، و مسألة بناء الذات بوصفها مستقلة، كما أن الخيط الذي قد يربطنا بالتنوير على هذا النحو ليس هو الوفاء لمبادئ المذاهب بقدر ما هو بالأحرى التفعيل الدائم لموقف ما، أي تفعيل روح فلسفية يمكننا أن نحددها من حيث هي نقد مستمر لوجودنا التاريخي (ترجمة، 2004، صفحة 59)، وتأسيسا على هذه فحسب شرابي هناك قصورا حادا وقراءة خاطئة في عملية قراءة التنوير لدى المثقفين العرب وبناء فكرهم عليه.

خاتمـــة:

في ختام هذه القراءة في مذكرات شرابي وتناولته من جوانب مباشرة وغير مباشرة بشخصية المثقف العربي وظروفه الفكرية وهواجسه، كان لزاما أن نشير إلى ما قاله الأمين عبد الله القبرصي حول هذه المذكرات " إن الدكتور هشام شرابي بلغ في سياق تفكيره مرحلة العقل الموضوعي، ومن كان هذا شأنه يمكن أن يرتبط بحزب أو لا يرتبط ... لا يختار المرء أباه وأمه إنما يختار عقيدته وإيمانه اختيارا حرا مطلقا، نحن بانتظار أن تعود جمرة يا هشام، لا جمرة منطوية على نفسها، غارقة بين الكتب، بل جمرة توليد الشعلة الهادية لتساعدنا على الانتشار والانتصار، ونحن بانتظار سطوع نور مشعل الفكر الملتزم الهادف البناء مرة أخرى من أعمال شرابي ومنجزاته." (مروة، 2000، الصفحات 236-237)، ولعل هذه الشهادة من أحد أصدقائه المقربين في الحزب القومي السوري أبلغ تعبير عن الروح الفكرية النضالية التي عُرف عنها شرابي خلال عقود طويلة من مساره "النقدي التحرري التنويري". أما المفكر "سيد ياسين" في سياق ذي صلة أن "...الجمر والرماد هو انتقال إلى دائرة أخرى، حيث يكشف هشام عن ذاته، في سيرة ذاتية بالغة العذوبة. هنا ينفض الأكاديمي عن نفسه قيود الكتابة العلمية بكل طقوسها وشكلياتها، ويقترب بعمق عن أرض الوطن مستعرضا ومتأملا مراحل الطفولة والصبا، ومؤرخا لصدمة القدوم الى الغرب، هذا العالم المعقد الغريب..." (بركات، 2011، صفحة 51). ففي هذا السياق كانت مذكراته المترجمة في سيرتيه الذاتيتين وبقية أعماله ومؤلفاته الغنية تعبر عن لسان حال المثقف العربي قاطبة، إذ حملت بلغة ذاتية أحيانا وموضوعية أحيانا أخرى معظم ما سيطر ويُسيطر عليه، وما يفكر فيه المثقف العربي ويهواه ويخشاه ويتطلع إليه. فسيرته ومذكراته لم تقتصر على استعراض المغامرات الشخصية وعلى وصف للأحداث التي عرفها الكاتب خلال مختلف أطوار حياته، وإنما هي وثائق قيّمة عن العصر، وعن البيئة، وعن المجتمع، وشهادات عميقة عن العرب خلال القرن العشرين وعن المغامرة المعرفية للمثقف العربي.

قائمة المصادر والمراجع:

- أوزال، حسن (2004). فوكو وسؤال التنوير، مراكش: منشورات مركز الأبحاث الفلسفية بالمغرب.
- بركات،حليم (2011). غربة الكاتب العربي، بيروت: دار الساقي.
- بن سباع، محمد (2016). الفكر العربي المعاصر من مضائق الاستحالة إلى أفق الإمكان، ط،1 عمان: دار الأيام للنشر والتوزيع.
- شرابي، هشام (1984). مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت: الدار المتحدة للنشر.
- شرابي، هشام(1978). الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي. بيروت: دار الطليعة للنشر.
- شرابي، هشام (1978). النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين(ط3). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- شرابي، هشام (1987). المثقفون العرب والغرب، بيروت: دار النهار للنشر .
- صدوق، نور الدين (1998، أفريل) سيرة التنوع، مجلة نزوى، العدد 14، ص226.
- ماي، جورج (1995). السيرة الذاتية، تونس: المؤسسة الوطنية للتحقيق والترجمة والدراسات.
- مروة، يوسف (2000). أزمة الفكر العربي المعاصر(ط1)، بيروت: دار أمواج.
- معزوز، عبد العالي(2012). هشام شرابي ونقد النظام الأبوي في المجتمع العربي (ط1،)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية
- النجار، خالد (1993). كتاب الأسئلة، بيروت: دار النبراس للنشر.

الهوامش:

* فلتة: مصطلح عامي شائع في الشام ولبنان، ويقصد به الشخص النابغة والحاد الذكاء.

* أنطون سعادة (1904-1949) مفكر وسياسي لبناني سوري، درس في القاهرة والأرجنتين وعمل في الولايات المتحدة والبرازيل، اهتم بدراسة اللغات والتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة والفلسفة، أسس مجلة "المجلة" وجريدة "الجريدة"، عُرف بكتاباته المناهضة للاستعمار واستقلال سوريا والهلال الخصيب أسس الحزب القومي السوري الاجتماعي عام 1932، وأعدم عام 1949 بسبب المواقف الثورية ضد النظام الحاكم في سوريا.